

# الفصل الثامن

## الحركة التجانية في المغرب العربي

أحمد زغب

دكتوراه في الأدب العربي ، أستاذ بالمركز الجامعي بالوادي- الجزائر

bouhobh\_d@yahoo.com

### المقدمة :

تعددت الثورات ضد سلطة الأتراك في الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، فحدثت ثورات قبلية ودينية دامت أحياناً سنوات طويلة،<sup>(١)</sup> ومن أشهر الثورات ثورة درقاوة، فقد قام أتباع الشيخ العربي الدرقاوي بقيادة الشيخ عبد القادر الشريف عام ١٧٩٦م بانتفاضة عنيفة ضد الأتراك، اشترك معهم فيها كثير من أتباع الطرق الصوفية الأخرى كالرحمانية والقادرية وغيرهما، ومن ثم أصبح الأتراك يحسبون حساباً دقيقاً للحركات الصوفية ويتوجسون منها خيفة. وقد ضعف سلطان الأتراك على الأقاليم، فاعتمدوا على أمراء القبائل، وهؤلاء كانوا يسيطرون رمزياً بجمع الإتاوة ودفعها إلى الحكام الأتراك الذين يخضع له الإقليم، أما الشعب فقد كان يسير شؤونه بنفسه معتمداً على أعرافه في التحالف والنزاع والتصالح. وتقوم الزوايا بتنظيم جانب كبير من شؤون الأهالي لما تحظى به من احترام كبير عندهم. ولد الشيخ أبو العباس في قرية عين ماضي، وتقع في قلب الصحراء الجزائرية، وتبعد حوالي (٧٠) كيلومتراً إلى الغرب من مدينة الأغواط، وهذه الأخيرة تقع إلى الجنوب من عاصمة الجزائر بنحو (٤٢٨) كيلومتر. ويرجع نسبه على أشهر الأقوال<sup>(٢)</sup> إلى محمد الملقب بالنفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي وابن فاطمة الزهراء.

كان بنو عراش - وهم أكثر سكان عين ماضي - على علاقة متوترة بينهم وبين الأتراك، بسبب تضيق الخناق عليهم بالضرائب، ويبدو أنهم تمنعوا في أكثر من مرة عن دفع هذه الضرائب التي كانت تثقل كواهلهم، فحوصرت بلدتهم

ليس من السهل الكتابة عن التجانية بنزاهة، على الرغم من الكم الهائل وآلاف العناوين التي كتبت منذ ما يزيد على قرنين من الزمان؛ ذلك أن الذين كتبوا عن هذه الحركة، إما أن يكونوا كتبوا من داخلها قصد الدفاع عنها ضد المتحاملين عليها، أو أن يكونوا تموقعوا خارجها ليتحاملوا ضدها بسبب عقائدها الجديدة على الفكر الإسلامي، وربما على التصوف كذلك، أو بسبب مواقفها السياسية التي أثارت شكوكاً عدة، وبخاصة في موطنها الأصلي الجزائر. أما محاولة إنصاف الحركة الصوفية فقد يبدو هدفاً بعيد المنال، ومع ذلك رأينا أن نتجشم هذه الصعوبة، معرضين عن المدافعين باستماتة وعن المهاجمين باستماتة، فهذه الحركة تدعو للعجب حقاً بسبب سرعة انتشارها، ففي ظرف وجيز لا يتعدى الخمسين عاماً وصلت إلى أقاليم وبلدان عدة في بلاد المغرب وشمال إفريقيا، بل توغلت إلى أدغال إفريقيا السوداء، كما قدر للإسلام أن ينتشر في كثير من هذه الأدغال بفضل رجالات هذه الطريقة الصوفية والحركة الفكرية.

أولاً: الظروف التاريخية لنشأة الحركة في المغرب الأوسط والأقصى

عاش الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التوجيني،<sup>(٣)</sup> نسبة إلى قبيلة بني توجين البربرية وهم أخواله، بين سنتي ١٧٣٧ م و ١٨١٥ م وهي الفترة التي شهدت أضعف وأسوأ مراحل الحكم التركي في ما كان يعرف بالإمبراطورية العثمانية في العالم الإسلامي وبلاد المغرب بخاصة. ففي هذه الفترة، وهي أواخر عصر الدايات،

لبعض الوقت، واسترجع سيادة دولته على بعض الأراضي في التخوم الشرقية مثل وجدة من السلطان العثماني، ثم استطاع بعد سنوات أن يسترجع توات وتيكورارين وكلاهما على الحدود الشرقية.<sup>(٨)</sup>

أما في علاقته بالعالم الخارجي وبخاصة أوروبا، فقد كان حكيماً في شد الحبل وجذبه من حين لآخر، وبخاصة أن حملات نابليون كانت في عهده، فقد شهدت أوروبا تحالفات ضد نابليون (بريطانيا وتركيا والنمسا ومملكة نابولي وروسيا اتفاقية سنة ١٧٩٨م) بسبب نزواته في التوسع على حساب الدول الأوروبية الأخرى، وقد وفق مولاي سليمان في التزام الحياد مرة، والانحياز مرة أخرى كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ومن ذلك أنه تقرب من الإنجليز ضد الفرنسيين حين هدد نابليون بغزو المغرب سنة ١٨٠٧م، واستجاب مرة أخرى لنابليون في السنة نفسها، وأرسل إليه أعداداً من الخيول التي طلبها.<sup>(٩)</sup>

وبسبب هذا الاستقرار النسبي الذي عاشته دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، فقد كانت أحسن حالاً بكثير مما كان عليه الأمر في المغرب الأوسط (الجزائر) إبان الحكم التركي.

ومع ظهور المجاملات الدبلوماسية التي أبدتها مولاي سليمان تجاه جيرانه<sup>(١٠)</sup> الأتراك في الجزائر، فإنه لا ينبغي أن ينسى أطماعهم في بلاده، ومن ثم فإنه كان يتحين الفرص لإظهارهم في موقف الأضعف، وإظهار دولته في حكم الأقوى، وفي هذا السياق يمكن تفسير استقبال مولاي سليمان للشيخ التجاني الهارب من ظلم الأتراك، واللجوء إلى عدل الأشراف.

ثانياً: الجذور الفكرية والثقافية والاجتماعية للتجاني وحركته

#### ١- التكوين الثقافي والاجتماعي:

ولد أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم في بلدة عين ماضي، وجده الرابع (محمد بن سالم) الذي قدم إلى عين ماضي من تافيلالت بالمغرب الأقصى، وكان معروفاً بالعلم والتقوى، أما جده الثالث الذي سمي على اسمه فقد كان مشهوراً بتدريس العلوم الدينية، وقد

في مرات عدة، لكن الأتراك كانوا يترجعون عن اقتحامها، إما بسبب تراجع أهل البلدة عن عصيانهم أو بسبب دفاعهم المستميت عن بلدتهم وشدة تحصين البلدة. وفي إحدى الحملات في عهد الداوي مصطفى باشا الذي تقلد الحكم سنة ١٧٩٧م شن باي وهران عثمان حملة حصار على عين ماضي، فاضطر أهلها إلى الاستسلام، وخضعوا للباي بدفع غرامة قدرها (١٧) ألف يوجو،<sup>(٤)</sup> وكان الشيخ أحمد التجاني يبلغ من العمر آنذاك حوالي ثلاثين عاماً، موجوداً في تلمسان لأمر من أمور التجارة، وكب إليهم ناصحاً إياهم بالصلح مع الأتراك والعدول عن مقاومتهم.<sup>(٥)</sup>

ولما كانت السلطة التركية في الجزائر سلطة أقلية دخيلة ومستبدة، لا تربطها بأهل البلاد سوى مصالح مادية، عزلت نفسها عن الأهالي وعزل الأهالي أنفسهم عنها، الأمر الذي جعل الفرنسيين يدخلون إلى الجزائر سنة ١٨٣٠م دون أن تكون تلك السلطة قادرة على مقاومة ذات شأن، ودون أن تلقى أية مساعدة من الشعب، فقد رفض الشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر التعاون مع باي وهران الحسن بن موسى لظلمه السابق،<sup>(٦)</sup> وترك الجزائريون تلك السلطة لتلقى الهزيمة بكثير من الشماتة والتشفي، مفضلين استئناف المقاومة بأنفسهم بعد رحيل الأتراك غير مأسوف عليهم.

أما في المغرب الأقصى وهو البلد الذي استقر فيه الشيخ التجاني بعد أن استقرت دعوته وبدأت تنتشر شيئاً فشيئاً في الغرب والجنوب الجزائري خاصة، فبعد فترة من الفوضى امتدت نحو ثلاثين عاماً توفي السلطان مولاي إسماعيل الذي حكم دولة الأدارسة بين سنتي ١٦٧٢م-١٧٢٧م، وخلفه على سدة الحكم السلطان مولاي محمد بن عبد الله ١٧٥٧-١٧٩٠م؛ ففي عهد هذا السلطان استرجع المغرب عافيته على المستويين الداخلي والخارجي.<sup>(٧)</sup> مع أن فترة حكمه انتهت ببعض الاضطراب بسبب صراع الإخوة مولاي يزيد ومولاي هشام ومولاي مسلمة على السلطة، إلا أن مولاي سليمان استطاع بفضل حنكته أن ينفرد بالسلطة (حكم بين ١٧٩٢-١٨٢٢) ويسترجع الهدوء، ويحافظ على وحدة البلاد واستقرارها

الطيب الوزاني الذي أذن له في تلقين ورده، ومنهم سيدي محمد بن الحسن الوجلي الذي أخبره أنه سيدرك مقاماً عظيماً في الولاية يسمونه القطبية الكبرى<sup>(١٣)</sup>، وأشار إليه بالعودة إلى بلده، ومنهم الولي الصالح سيدي عبدالله بن سيدي العربي الأندلسي، ومنهم سيدي أحمد الطواش، وأخذ منه ورده كذلك، وأخذ الطريقة القادرية والناصرية والصديقية.<sup>(١٤)</sup>

والواقع أن الممارسات الدينية في تلك العصور كلها كانت قائمة على التصوف والطرق الصوفية، ففي بلاد المغرب، وفي الفترة التي عاش فيها الشيخ التجاني، نجد عشرات الطرق الصوفية ومئات الزوايا؛ ذلك أن الطريقة الواحدة تنفرع إلى طرق فرعية والزوايا الواحدة تخرج منها عدة زوايا، ومن ذلك أن الشاذلية خرجت منها الدرقاوية والعيساوية والزيرية والحنصالية، والطريقة القادرية تفرعت منها (٣٣) زاوية حسب تقديرات السلطات الفرنسية عام ١٨٩٧م،<sup>(١٥)</sup> وكذلك الرحمانية خرجت منها العزوزية والخلوتية والسالية والحملاوية والدردورية.

والمغرب العربي ليس بدعاً من أمره في هذا الشأن، فبلاد المشرق كذلك كانت تعج بالتصوف والطرق الصوفية، وكان الدين يمارس - غالباً - في ظل هذا النهج، وما نشأة الحركة الوهابية وكفاحها المستميت إلى درجة التطرف، إلا ردة فعل عنيفة في وجه ذلك الغلو؛ فالشيخ التجاني، وعلى الرغم من أنه عاصر الحركة الوهابية، لم يكن يحيط رحاله في رحلته إلى بلاد المشرق إلا في حضرة شيخ من شيوخ البركة والكرامة والولاية، ففي مصر نال البشري من الشيخ محمود الكردي المصري شيخ الطريقة الخلوتية بالقاهرة، وأما في المدينة المنورة، فقد كان يتردد على الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، شيخ محمود الكردي السابق الذكر، وفي مكة زار شيخاً آخر من شيوخ التصوف هو أبو عبد الله الهندي، لكنه اتخذ له نهجاً خاصاً يجمع بين الخلوتية والقادرية والشاذلية وله مؤلفات في التصوف،<sup>(١٦)</sup> وقد بشر هذا الأخير الشيخ التجاني ببلوغ المرام.

## ٢- التكوين التربوي والروحي:

لم تكن المدة التي قضها الشيخ التجاني في بلاد المغرب، وفي عاصمة الأدارسة بالذات وهو إذاك شاب

وصفه العياشي الذي التقى به خلال رحلته بأنه عالم كبير، أما المختار جده الأول فقد كان من أعيان عين ماضي وأغنيائها، أما والده محمد (بفتح الميم) فقد كان من الفقهاء، واشتهر بالصلابة في الدين حتى لقب بأبي عمرو.<sup>(١٧)</sup> وتجمع المصادر التجانية أن أحمد التجاني كان طفلاً متميزاً عن أقرانه، فقد حفظ القرآن في السابعة من عمره، وما أن بلغ الخامسة عشرة حتى ألم بكثير من العلوم التي تؤهله إلى أن يصبح شيخاً عالمًا فقيهاً في المستقبل، مضطعاً بالتدريس والإفتاء؛ فقد درس مختصر سيدي خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، ومقدمة ابن رشد في مذهب الإمام مالك، والأجرومية في النحو ونحو ذلك من علوم اللغة. وما أن بلغ الشاب الحلم حتى سارع والده بتزويجه صيانة له، لكن هذا الشاب كان مقبلاً على العلم منقطعاً له، فطلق زوجته بعد عام واحد من الزواج. ومن الظروف التي أثرت في نفسه تأثيراً بالغاً في شبابه المبكر وفاة والديه الاثنين في يوم واحد بسبب وباء ألم بالقرية، قالت أمهات كتب التجانية إنه الطاعون،<sup>(١٨)</sup> وكان عمر الشيخ آنذاك ستة عشر عاماً.

وهكذا انقطع الشاب إلى العلم والتعليم والعبادة، مدة ست سنوات، ثم سافر إلى عاصمة الأدارسة حوالي سنة ١٧٥٩م مدينة فاس المغربية التي سوف يكون له فيها شأن كبير في المستقبل. غير أن مصادر التجانية لا تتحدث عن طلبه العلم في جامعة القرويين، أما المصادر التي تعد حيادية، وهي دراسات مغربية في الغالب، على الرغم من أنها تركز على أن التجاني عاد إلى بلده الأصلي، وشده الحنين إلى بلد آبائه وأجداده، غير أننا نستبعد هذا الأمر نظراً لأنه لم تكن هناك في الجزائر، جامعة علمية تضاهي القرويين في المغرب والزيوتنة في تونس، بسبب طغيان الحكام الأتراك، فكان الجزائريون في شرق البلاد يسافرون إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، بينما كان الجزائريون الذين يعيشون في غرب البلاد مثل الشيخ التجاني يسافرون إلى جامعة القرويين بالمغرب. ومكث الشيخ في جامعة القرويين ما لا يقل عن اثنتي عشرة سنة، يدرس العلم، وقد تعرف في أثناء هذه الفترة على بعض من رجال التصوف في المغرب، منهم مولاي

مؤسس الدولة الإدريسية، وفي الطريق التقى بأحد كبار أصحابه، علي حرازم برادة<sup>(١٩)</sup> الذي نقل لنا كثيراً من آراء الشيخ في كتابه الذي يعدّه التجانيون المصدر الأول للتعرف على الطريقة التجانية وأفكار الشيخ وآرائه واجتهاداته.

عاد الشيخ إلى تلمسان بعد هذه الرحلة، لكنه لم يمكث طويلاً، إنما توجه إلى قصر الشلالة، وفي قصر الشيخ الولي الصالح أبي سمغون أقام الشيخ التجاني أربعة عشر عاماً يتعبد في خلوته لا يخرج منها إلا قليلاً، إلى أن تحقق له ما يسمونه الفتح الأكبر سنة ١٧٨١م.

والفتح الأكبر -حسب التجانيين- أتى بعد أن كان الشيخ يتهرب من الناس، لعدم أدعائه المشيخة، ولا يهتم إلا بتركية نفسه، جاءه الرسول صلى الله عليه وسلم وأذن له بتلقي الناس الوارد الخاص به وطريقته، وأذن له بتربية الخلق على العموم والإطلاق، غير أنهم يعتقدون أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتصل به عن طريق اليقظة لا في رؤيا الأحلام.

ومصادر الطريقة التجانية كلها بلا استثناء تجمع على هذا الأمر الذي قد يبدو للوهلة الأولى مجرد شطحة من شطحات الصوفية؛ الشطحات التي يعترف بها علماء التجانية في بعض الأحيان في مسائل أخرى<sup>(٢٠)</sup>، ويقرون بعدم أخذها مأخذ الجد، أو تأويلها على وجه صالح.

أما في مسألة رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم في اليقظة من قبل الشيخ التجاني خاصة، فإنهم لا يقبلون فيها أي تأويل، ويدافعون عنها دفاعاً مستميتاً، ويسوقون أدلة كثيرة من النصوص وأقوال علماء الدين السابقين وبخاصة من علماء التصوف، كلها تنص على أن رؤية الرسول في اليقظة ممكنة، وأن الشيخ التجاني في هذا الأمر بالذات ليس صاحب بدعة، إنما سبقه إلى ذلك شيوخ كثيرون كأبي حامد الغزالي ومحيي الدين ابن عربي والسيوطي وغيرهم<sup>(٢١)</sup> ومن هنا كان انطلاق الطريقة وانتشارها سريعاً وواسعاً في الصحراء الجزائرية أولاً والمغرب الجزائري ثانياً، ثم امتدادها إلى الشرق لتصل إلى الأراضي التونسية في زمن وجيز، وفي وقت كانت سبل الاتصال جد بدائية. والغريب في ذلك أن الشيخ ما أن وصل بلاد المغرب حتى رحب به

دون الثلاثين، إلا إرهافاً لظهوره في ما بعد صاحب دعوة أحدثت تغييراً كبيراً في المسار العلمي والديني لبلاد المغرب بخاصة، وأثرت في الحركة العلمية والثقافية والدينية في كثير من الأقاليم المجاورة وحتى البعيدة فيما بعد؛ فقد درس ودرّس في القرويين، وأقام علاقات صداقة مع كثير من مشايخ فاس ووجهاتها. فبعد أن تعمق الشيخ في علم الحديث انتقل إلى جبل العلم بشمال المغرب ليأخذ القراءات؛ ثم أخذ يطلع على أمهات كتب التصوف مثل خاتم الأولياء للحكيم الترمذي، وهو عبارة عن أسئلة وأجوبة في مراتب السلوك الصوفي، والفتوحات المكية وفصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي، وكتب أخرى لكبار المتصوفة كالخارث المحاسبي وعبد الكريم الجيلي والسراج الطوسي والقشيري وغيرهم كثير.

وبعد الفهم النظري لكبريات القضايا الفكرية والروحية الصوفية انتقل الشيخ للممارسة العملية لهذا السلوك، فجدّ في البحث عن شيوخ التربية الروحية ولقي كثيراً منهم، وأخذ كثيراً من الأوراد ودخل كثيراً من الطرق، لكنه خرج منها جميعاً كما تجمع مصادر التجانية على ذلك<sup>(٢٢)</sup>

وفي سنة ١٧٧١م ترك المغرب الأقصى وفقاً لتعليمات شيخه محمد بن الحسن الوجلي عائداً إلى الصحراء، حيث مكث بالأبيض سيدي الشيخ، ثم توجه إلى تلمسان ثم إلى بجاية ثم إلى تونس ثم مصر ثم أرض الحجاز، وكان كلما وصل بلدأ قصد شيوخ التصوف فيه، ففي بجاية لقي شيخ الرحمانية الخلواتية سيدي عبد الرحمن الأزهرى، وفي سوسة وتونس مكث سنة كاملة، وكان يتردد على شيخ آخر هو عبد الصمد الرحوي، واشتغل هناك بتدريس الحكم العطائية، فسمع عنه الباي وطلب منه أن يقيم فامتنع<sup>(٢٣)</sup> ثم رحل إلى مصر، في طريقه إلى أرض الحجاز لتأدية ركن الحج سنة ١٧٧٣م، وبعد أن أدى مناسكه وزار بعض الشيوخ في أرض الحجاز عاد إلى تلمسان ماراً بشيوخه في مصر وتونس، ثم وصل تلمسان عام ١٧٧٤م وأمضى فيها ثلاث سنوات في العبادة، ثم عاد إلى فاس للمرة الثانية، ليس بقصد الإقامة ولكن بقصد زيارة شيوخه وزيارة ضريح مولاي إدريس



غير أن العوامل الأكثر أهمية على الإطلاق، كان تبخره في العلم، الأمر الذي جعل كل من يحضر درسه ينبهر بسعة علمه ودقة تناوله للمسائل الدينية في الفقه وغيره. وإلا فكيف يأتي رجل من قرية نائية في الصحراء الجزائرية ليفرض نفسه على كبار علماء جامعة القرويين، بل إن كبار وجهاء وقضاة وأغنياء فاس كانوا إلى صفه، حتى إن السلطان نفسه سمع عنه أولاً، وطلب الاستماع إليه، ثم انتصر له في مناظرة علمية بينه وبين خصومه الذين لم يلبثوا أن اعترفوا له بسعة العلم والفضل، بل أصبح السلطان من أقرب المقربين إليه ومن أتباع طريقته فيما بعد.

## ٢- العوامل الإيديولوجية:

هل يمكن أن يكون ترحيب السلطان سليمان بالشيخ التجاني يعود إلى تبخره في العلم وبذخ خصومه من العلماء فحسب، أم هنالك عوامل أخرى إيديولوجية ربما كانت متقدمة في الرتبة على العامل السابق.

رأينا أنه على الرغم من مجاملات السلطان سليمان الدبلوماسية للأتراك وقدرته على استعادة سيادة المغرب على منطقة وجدة من أيدي الأتراك مقابل المساهمة في تهدئة الثورة الدرقاوية في الغرب الجزائري، فإن التنافس بين دولته ودولة الأتراك في الجزائر كان على أشده؛ ومن ثم لم يكن السلطان يدّخر جهداً أو فرصة لتسجيل نقاط على الأتراك وإظهار قوة دولته وعافيتها في هذا الظرف الجيوسراتيجي الحساس المشحون بالضغط الأوروبي على المغرب والجزائر على السواء؛ ومن ثم فإن رسالة الشيخ التجاني التي تطلب من السلطان الحماية من جور الأتراك بوصفه من العترة الشريفة، كان لها تأثير على السلطان. ومع أننا لم نحصل على هذه الرسالة ولم يدع أحد من الباحثين أنه اطلع عليها، إلا أن من يطلع على رسائل الشيخ إلى أتباعه<sup>(٢٣)</sup> يأخذ صورة جيدة عن لباقة في الخطاب وحسن اختياره للكلمات، فمادام لو تعلق الأمر بالحاكم الذي يلجأ إليه. لا شك في أن هذه الرسالة قد داعبت غرور السلطان، وخاصة أنه قد يكون تناهت إلى سمعه معلومات عن كثرة أتباع الشيخ التجاني في الجزائر.

هذا في البداية، ثم كانت الأفكار التجديدية التي جاء

السلطان مولاي سليمان حاكم عاصمة الأدارسة، وبوآه مكانة مرموقة، حسده عليها - في البداية - كبار علماء فاس والقرويين، ثم ما لبثوا أن التحقوا معظمهم بزمرة أتباعه وطالبي بركه، بل إن السلطان نفسه أصبح من حملة أوراده ومن خاصته، فما هو السر الذي حمله التجاني حتى أثر بمنهجه في العبادة في الملايين من البشر عبر أماكن متباعدة، وفي زمن وجيز؛ أي ثلاثين عاماً، وهي الفترة التي تمتد منذ الفتح الأكبر وبداية تلقين الأوراد والتربية الروحية للناس إلى وفاة الشيخ عام ١٨١٥م.

ثالثاً: عوامل انتشار الحركة التجانية في المغرب العربي والسودان الغربي

يمكن تصنيف هذه العوامل إلى عوامل شخصية للسيد التجاني نفسه، وعوامل إيديولوجية أسهمت في بروزه، وعوامل تنظيمية أسهم فيها خلفاء الطريقة ومقدموها، وعوامل اجتماعية.

## ١- العوامل الشخصية:

لا بد وأن الشيخ التجاني كان قوي الشخصية، يتمتع بمواهب فطرية متعددة من قوة في الذاكرة، وحدة في الذكاء، وحسن معشر ولباقة في التعامل، الأمر الذي جعل له رصيداً هاماً من المحبين له حتى قبل أن يأخذ في نشر طريقته، فقد كانت الإقامة في فاس مدة اثنتي عشرة سنة في أثناء الدراسة، وانتقاله إلى جبل العلم بشمال المغرب، وتعرفه إلى كثير من الشيوخ في أنحاء متفرقة من المغرب، كل ذلك يدل على قدرات ذاتية فذة على نيل تعاطف الآخرين وإعجابهم، ولا ننسى أن موت والديه في يوم واحد، وهو لا يزال شاباً، أثر على نفسه تأثيراً عميقاً، فجعل نفسه أكثر شفافية، وصغر الدنيا في عينيه، فضلاً عن حاله المادية الميسورة بسبب الثروة التي تركها أبوه، فهو من أسرة غنية وحيية، وجده كان من كبار الأغنياء، والروايات التي أوردتها كتب التجانية، تدل على أنه ظل يمتلك الإبل والماشية وله تجارة حتى بعد أن أخذ ينشر طريقته<sup>(٢٤)</sup>، وهذا يسهل عليه الحركة، ويذل أمامه كثيراً من الصعوبات، ثم ظروف خروجه من البلاد محاصراً من الأتراك، وتخطيطهم قريته عن آخرها سنة ١٧٩٧م وسعيهم للقبض عليه، وكرهية الناس لهؤلاء الحكام.

الشيخ محمد الحافظ كان من قبيلة ذوي عليّ التي يعتقد أهلها أنهم من نسل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن هذه القبيلة كانت ذات نفوذ بين القبائل الأخرى بسبب هذا الأصل الشريف، غير أنها تفرقت بين عدة أقاليم وتقاسمتها عدة مشارب كالطريقة الكتبية وغيرها، فلما كان لهذا العالم؛ أي محمد الحافظ العلوي الذي أخذ مباشرة عن الشيخ التجاني، وكان من كبار أصحابه، ونال شهرة واسعة واحتل مكانة محترمة بين بني قومه، فقد التفت حوله هذه القبيلة، من أجل استرداد وحدتها ومهابتها بين القبائل. (٢٨)

أما في السودان الغربي، فإن الحاج عمر الفوتي مؤسس أكبر إمبراطورية تجانية في هذه المناطق، أول ما تعرف على التجانية، عرفها من السيد عبد الكريم بن أحمد النافل، وهذا الأخير أخذها من علماء شنقيط وأولهم سيدي مولود فال، الذي نقلها من الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي المذكور آنفاً. (٢٩)

غير أن الأستاذ الحقيقي للحاج عمر الفوتي، كان محمد الغالي أبو طالب، الذي كان من أصحاب الشيخ المقرين، ويشهد له كثير من العلماء أنه كان جريئاً في مجادلة الشيخ. (٣٠) والذي لقيه الفوتي في أرض الحجاز، وقد قصدتها لأداء فريضة الحج بعد وفاة عبد الكريم المذكور آنفاً، ومكث مدة في ضيافته يأخذ منه أسرار الطريقة وبركاتها.

والحاج عمر الفوتي، بالإضافة إلى إعلانه الجهاد ضد الفرنسيين والوثنيين على السواء، وتأسيسه لدولة امتدت من تمبكتو في وسط مالي إلى غاية فوجا جلون (Futa Djallon) من أرض غينيا حيث (Jégunko) عاصمة دولته الجهادية، مروراً بأراض من بور كينا فاصو حالياً وأراض من السينغال وحتى ليبيريا، أسهم إسهاماً كبيراً في نشر الطريقة في إفريقيا السوداء، بل إن بعض القبائل الوثنية قد دخلت الإسلام انطلاقاً من دعوة الفوتي إلى التجانية.

كان التهديد المسيحي لإفريقيا الغربية مشروعاً تبنه فرنسا على أشده، حين بدأ الفوتي دعوته سنة ١٨٤٠م، أما المسلمون فكانوا إمارات ضعيفة، مثل جاركا وسيكو وماسينا تنازع السلطة وتتقوى بدويلات وثنية مجاورة مثل كارتا (Karta) بعضها ضد بعض، أما ممارسة الدين فقد

بها التجاني فيما بعد، قد صادفت هوى في نفس السلطان سليمان، فقد قام هذا السلطان بإجراءات زجرية ضد بعض الزوايا وممارسات البدع والتطرف في الرقص والإنشاد بالآلات في المواسم، وكثرة زيارات الأضرحة وإقامة المواسم، وهذه من الأمور التي حاربها الشيخ التجاني، فقد نص صراحة على وجوب التزام الكتاب والسنة. (٣٤)

فالمعروف أن الشيخ التجاني كان ينهى أتباعه عن زيارة الأولياء الآخرين، وكان يحثهم على وجوب التقيد بالشرع، فقد ورد عنه أنه قال إذا سمعتم عني قولاً فزنوه بميزان الشرع فإن وافق الشرع فاعملوا به وإن خالف فاتركوه. (٣٥)

أما في الجزائر، فإن ملل الناس، وبخاصة المتنورون منهم، من الطرق المستهلكة في الطقوس التعبدية التي تمارس في الزوايا القديمة جداً، كالفادرية، وتوقهم إلى الجديد من جهة، ومن جهة أخرى كراهيتهم للأتراك الذين كانوا في أزمتهم مع فرنسا خاصة والدول الأوروبية عامة، لا يملكون إلا تشديد الضغط على الأهالي بالضرائب، وتسامع الناس عن الصورة الدراماتيكية التي حارب بها الأتراك قرية الشيخ وتحطيمها، وهروب الشيخ إلى المغرب الأقصى، كل ذلك أسهم إلى حد ما في شهرة الشيخ وتعاطف الناس مع دعوته.

أما في السودان الغربي، ونعني به ما بين نهري النيجر والسنغال جنوباً، فما كانت التعاليم التجانية لتصل إلى ذروتها أواسط القرن التاسع عشر لولا وصولها أولاً إلى ما كان يسمى ببلاد شنقيط، وهو جزء من الصحراء جنوب المغرب: الساقية الحمراء ووادي الذهب، (٣٦) وما يعرف حالياً بموريتانيا، وذلك على يد الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي، والقصة التي أوردها الشيخ سكيرج في كشف الحجاب (٣٧) عن تعرف الشنقيطي على الطريقة التجانية غير مقنعة لخلطها بين العجائية الأسطورية والتاريخ، وكذلك حكاية بدئه الصدوع بالدعوة التجانية في بلاده شنقيط، ومع ذلك يمكن أن نستنتج منها أن الرجل لم يكن قانعاً بالشيوخ الموجودين في بلاده فخرج يبحث عن شيخ يستمد منه الحركة، والعامل الإيديولوجي المهم في انتشار التجانية في شنقيط بالإضافة إلى العوامل السابقة، هو أن

لقنه الفوتي أورادها وأجازته في إعطاء الأوراد من يطلبها من المسلمين، وكثر أتباع الفوتي وانضم الناس إلى طريقته من كل مكان وشرع في التأسيس وأصبحت عاصمته (jégunko) ذات مجتمع مزدهر اقتصادياً وتجارياً.<sup>(٣٣)</sup>

### ٣- العوامل التنظيمية:

كلف الشيخ كبار العلماء من أصحابه بالذهاب إلى الأقاليم البعيدة، فقد أرسل علي حرازم إلى الحجاز، وبعد وفاة هذا الأخير، أرسل محمد الغالي أبوطالب، وأرسل ابن المشري إلى الصحراء ومحمد الحافظ العلوي إلى شنقيط والحاج علي التماسيني إلى الجنوب الشرقي الجزائري ومحمد بن عبد الواحد المصري إلى مصر وإبراهيم الرياحي إلى تونس، ثم إن هؤلاء من كبار أصحاب الشيخ كانوا خلفاء للشيخ، لذلك كان لكل واحد منهم مجموعة من المقدمين ينتشرون في أنحاء متفرقة، يعلمون العامة الأوراد ويأذنون لهم فيها.

ولم يكن الشيخ يكتفي بهذا إنما كان يتابع نشاط الزوايا المتفرقة في أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، ويوجههم بالرسائل الكثيرة، ويسأل عن أخبار الأحباب -كما يسميهم في رسائله- وهو يعني مردييه وأتباع طريقته، ويحثهم على بناء الزوايا ويتدخل في كل شاردة وواردة فيما يتعلق بهذه الزوايا، ويحدد لهم أماكن بنائها،<sup>(٣٤)</sup> ويقرب العلماء ويحثهم على الدفاع عن تعاليم الطريقة من حيث مطابقتها للشرع، الأمر الذي جعلهم يؤلفون -في حياة الشيخ وبعد وفاته- عشرات العناوين معظمها يرد على المغرضين والمنتقدين.

كما أن بقاء الطريقة التجانية تحت قيادة مركزية موحدة، جعلها تتجنب ما حدث لزوايا أخرى كثيرة؛ إذ كانت تنقسم فور وفاة الشيخ المؤسس، فمرجعية السلطة الروحية عند التجانية ترجع دائماً للشيخ الأكبر فهو الذي يعين خلفاءه ومقدميه، ومن ثم تظهر هذه المركزية الشديدة، وقد أبت على عدم تعددية الزوايا فهما زاويتان في الجزائر، تبادلان السلطة، والرجوع في القرار الأخير إلى الشيخ الأكبر، نتج عن ذلك عدم تفتيت الطريقة إلى فروع متنافسة ومنقسمة كما في الطرق الأخرى،<sup>(٣٥)</sup> أما في المغرب الأقصى فقد ظلت السلطة الروحية الرئيسة في الزاوية الأصلية بفاس.

تجمّدت وتحولت إلى وصاية شيوخ لا همّ لهم إلا المحافظة على مصالحهم، بمارسون الطريقة القادرية الكنتية التي تجمّدت وأصبحت مجرد طقوس شبه وثنية خالية من كل أثر للدين الحقيقي.<sup>(٣٦)</sup>

وعندما كان عائداً من الحجاز بعد أن حج مرتين، وتلقينه أسرار الطريقة على يد محمد الغالي السالف الذكر، كان كلما مرّ بمكان أقام فيه مدة يتعرف على وضعه الاجتماعي والديني خاصة، يدعو الناس إلى دعوته الجديدة بوصفه خليفة الشيخ، ويترك مجموعة من مرديي الطريقة التجانية يحملون وردة ومقدمين يدعون إليها غيرهم، فقد ترك أثراً طيباً وأتباعاً في مرزق الليبية، وفي بورنو ترك زاوية وأتباعاً، وأما في سوكونتو عاصمة بلاد الهاوسا فساند أمير البلاد، محمد أبلو ابن السلطان عثمان، على الرغم من أن هذا الأخير كان يتبع الطريقة القادرية، ضد أعدائه من إمارتي (kashn) و (Gobir) اللتين تحالفتا ضده، فقد اغترط الحاج عمر في هذه الحرب وجند لها أتباعه ومرديي طريقته، الأمر الذي ساهم في انتصار محمد أبلو على أعدائه سنة ١٨٣٦م وهذا ما جعل محمد أبلو أمير البلاد يعجب به ويطلق يده في بلاده يدعو لدعوته ويؤسس زاويته، بل أكثر من ذلك زوجه إحدى بناته، وهكذا كثر أتباعه ومحبيه، بل إن بعض الباحثين يرجحون أن محمد أبلو نفسه اغترط في التجانية وترك الكنتية القادرية التي كان عليها أبوه.<sup>(٣٧)</sup>

أما في (Kan Kan) و (Timba) فقد كانت شهرته وصيته الطيب يسبقه إلى المكان أينما حل وارتحل، فقد استقر يدعو الناس، واستطاع أن يكسب محبة حكام بلاد التيمبا وتأييدهم بعد أن أصلح بين الأخوين المتنازعين على السلطة بعد وفاة والدهما.

وهكذا وصل الحاج عمر الفوتي إلى محطته الأخيرة التي سيتخذها عاصمة له وقاعدة انطلاقه في الجهاد وهي (Jégunko) في إقليم (Futadjallon) هذه المنطقة التي نشأ وتربى فيها ونسب إليها الفوتي ودرس فيها في طفولته وشبابه. وقد كان الاستقبال حافلاً من أهل البلاد والحاكم الإمام أبوبكر الذي شارك بنفسه في تأسيس الزاوية والجامع، ثم اغترط الإمام أبوبكر في الطريقة التجانية بعد أن

وفي غاية السهولة يقدر عليه الأمي والمتعلم والعالم، كل حسب إمكانياته وقدراته.

فالورد اليومي هو مائة مرة من الاستغفار، ومائة مرة من كلمة التوحيد، والصلاة على النبي بأية صيغة كانت<sup>(٣٩)</sup> مائة مرة، وليست هناك شروط صحة لهذا الورد سوى الطهارة وستر العورة وعدم الكلام في أثناء الذكر إلا للضرورة، ويجوز أن تكلم الزوجة زوجها والابن أباه في أثناء الذكر. وهناك ورد آخر هو الوظيفة، وهو شبيه بالورد الأول من حيث الأذكار لكنه يختلف عنها من حيث عددها، والوظيفة أيضاً يومية، يفضلون ذكرها جماعياً، والورد الأخير هو الهيلة وهي ورد أسبوعي يوم الجمعة بعد صلاة العصر، ويفضل أيضاً أن يكون جماعياً<sup>(٤٠)</sup>، وحامل أورد التجانية في حل من كل التزامات بأوراد سابقة، والشرط الوحيد أن يتمتع المريد التجاني عن زيارة الأولياء الآخرين خارج الطريقة التجانية.

ثم إنه إذا كانت العامة، تلجأ - في أحسن الأحوال - إلى العلماء في أمور دينها، فإن هؤلاء العلماء لا يستطيعون الاستغناء عن العامة، فهم الذين ييؤوئهم المكانة المرموقة، ومقياس علم العلماء لدى العامة، هو المشرب أو الطريقة التي ينتمي إليها هذا العالم أو ذاك<sup>(٤١)</sup> كما أننا رأينا أن الغالبية الساحقة لعلماء فاس ووجهاتهم وقضائهم، اتبعوا الشيخ التجاني، إن عن اقتناع أم عن مهادنة للحاكم الذي أعجب به، وناصره ودعّمه ثم أخيراً حمل ورده.

رابعا: الأفكار التجديدية للشيخ التجاني وعلماء الطريقة

بغض النظر عن الشطحات الصوفية الكثيرة عند الشيخ التجاني، التي رأينا أن بعضها يردّها أتباعه وبخاصة المعتدلون منهم بالرجوع إلى مقولته المشهورة: إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع فإن وافق الشرع فاعملوا به، وإن خالف فاتركوه، وكثيراً ما يؤولونها تأويلاً غير مستنكر، ومن هؤلاء المعتدلين الشيخ محمد الحافظ التجاني المصري، في تعليقاته على ما ورد في الإفادة الأحمدية للطبيب السفياي، وهو الكتاب الذي جمع فيه أقوالاً كثيرة منسوبة إلى الشيخ، فقد أقرّ المصري بعدم حمل بعض الأقوال على

حاولت التجانية في الجزائر التزام الحياد، في الصراع ضد المستعمر الفرنسي، الأمر الذي جعل كثيراً من خصومها يتهمونها بالتواطؤ مع الاستعمار، على الرغم من تورط الشيخ محمد الحبيب ضد المستعمرين ومساندته ثورة أولاد سيدي الشيخ، واعتقال الشيخ - وهو حفيد الشيخ التجاني وخليفته في عين ماضي - من قبل السلطات الفرنسية<sup>(٣٦)</sup>. أما في السودان الغربي، فإن الأفكار النظرية الواردة في كتاب الرماح للفتوي، من زعمه معرفة الاسم الأعظم<sup>(٣٧)</sup> ووجوب الطاعة العمياء والانضباط، والتحذير من الاعتراض على فعل الشيخ حتى لو بدا في ظاهره فسقاً أو زندقة<sup>(٣٨)</sup>، وعدم بحث المريد عن علة فعل الشيخ، وأن يقبل بها سواء فهم علته أم لم يفهمها، وغير ذلك من الأفكار التي استوحاها من مختلف الكتب الصوفية، كل ذلك قد طبقه عملياً مع جنوده وقادة جيشه في قتاله ضد الوثنيين، ثم ضد الفرنسيين فيما بعد، كما أن توزيعه المسؤولية على أبنائه وعلى كبار قادته في الأقاليم التي أخضعها لدولته؛ كل ذلك عمل على شيوع السمعة الطيبة للفتوي وطريقته في إفريقيا، وترك انطباعاً بأنه لا يسعى من وراء جهاده إلى السلطة.

#### ٤ - العوامل الاجتماعية:

كانت الأمية والجهل متفشين في أوساط الأهالي سواء في الجزائر أم في المغرب، ولو أن المغرب كان أحسن حالاً بسبب الحالة السياسية المستقرة نسبياً، وبسبب وجود جامعة كبرى كجامعة القرويين، الأمر الذي رسّخ هذا الميل الشديد إلى ربط الدين والتدين بالأفكار الأسطورية والأعمال الخارقة المسماة: كرامات؛ والذهنية الجماعية تقبل هذه الأفكار بسهولة، بل تتحمس لمثل هذه الأفكار بسبب الأوضاع الاجتماعية المزرية وعجز الناس عن تغييرها إلى الأفضل، وتوقعهم إلى حياة كريمة، الأمر الذي جعل الأمل الوحيد الذي بقي أمامهم في الأولياء الصالحين وقدراتهم السحرية (الكرامات) وتأييد العناية الإلهية ودعمها إياهم، وهذا العامل يتعلق بالطرق الصوفية بصفة عامة، غير أننا ونحن نتناول الطريقة التجانية بوجه خاص، لا بد من أن نذكر التسامح الشديد لهذه الطريقة، في مسألة التقيد بالتعاليم، فالورد بسيط وغير ملزم إلا لمن رغب في ذلك،

تطرف، أما الشيخ التجاني - ففي رأينا - جاء بقول وسط بين تطرف المعتزلة وجمود أهل السنة، فهناك النص المقدس والوحي وهو القرآن الحقيقي، وهناك من جهة أخرى حوار الإنسان مع النص في إطار تفاعله مع الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وتلك هي قراءتنا لمدلولات النص وهي ليست مقدسة وهو الجانب الإنساني من القرآن الذي لا ينبغي إغفاله.

ومن الأقوال التي وردت عن الشيخ التجاني، والتي كثيراً ما يتخذها التجانيون شعاراً<sup>(٤٦)</sup> للدعوة إلى الرقي في المستوى المعيشي والفكري والحضاري، ما ورد عن الشيخ في الإفادة الأحمديّة: "بسير زمانك سر."<sup>(٤٧)</sup>

يقول الطبيب السفياي شارحاً هذا القول: "بمذا المعنى، ما ترك من الجهل شيئاً، مَنْ أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه،"<sup>(٤٨)</sup> وهكذا فإن التجانية متساهلة جداً مع متطلبات ومتنجات الحضارة الحديثة، ولم تنكر من أمرها شيئاً كما هو الشأن فيما نرى لدى كثير من العلماء المترمتين.

أما كبار علماء وخلفاء الشيخ التجاني، فقد سعوا كلٌّ من جهته لتكريس مبادئ وقيم التسامح، وقيم العمل والعبادة وفق منهج التجاني الذي يدعو إلى الجمع بين العمل والعلم والعبادة، وهذا شعار يرفعه التجانيون من وصية أكبر خليفة للشيخ التجاني في الصحراء الجزائرية، وهو الحاج علي الينبعي التماسيني، والشعار بلغة عامية «السَّيِّحَة وَالْمُسِيحَة وَاللَّوِيحَة حَتَّى تَخْرُجَ الرُّويحَة» أي: ملازمة السبحة وهي أداة الذكر والعبادة، واللوحه، وهي أداة حفظ القرآن في إشارة إلى طلب العلم، والمسيحة، مصغر مسحاة، وهي آلة الحرث اليدوية، إلى غاية خروج الروح.

بل أكثر من ذلك سعوا إلى الجمع بين الدين والجهاد، والحاج علي في نصرته للمظلومين من أهل قريته، خاض حرباً ضروساً ضد الجلايلة؛ أي بني جلاب؛ الأسرة التي حكمت تقرت أواخر العهد التركي، في توقرت، احتشد في صفّه كل من سمع عنها، وهزم أعداؤه هزيمة قاسية، وهي عامل أسهم بصفة أكثر في ذبوع سعة الحاج علي الطيِّبة عند أهل صحراء الجنوب الشرقي الجزائري.

حمل الجد، بقوله: "المنصف لا ينكر ولو يحمل على أنه من الشطح الذي يقع للشيوخ."<sup>(٤٩)</sup>

ونأتي إلى اجتهادات الشيخ الفقهية التي خالف فيها المالكيين، وهي المدرسة الفقهية المتبعة في بلاد المغرب العربي من أقصاها إلى أقصاها، فقد روي عنه أنه لم يكن راضياً عن بعض ما ورد في أمهات كتب الفقه، يقول في ذلك "ما أحوج الناس في هذا الزمان إلى علماء ينقحون لهم كتب الفقه من الحشو."<sup>(٥٠)</sup>

وهكذا فقد خالف فقهاء المالكية في مسائل كثيرة لا يتسع المجال لتفصيلها، إنما نقتصر على أمثلة قليلة، من بينها الجهر باليسملة في صلاة الفرض عند قراءة الفاتحة، وهذا عند المالكية مكروه، وعنده واجب، وشدد الإنكار على من يقول بقتل الثلثين من أجل إصلاح الثلث، وأنكر أخذ الأجرة على قراءة القرآن وتعليمه، وفكرة أن الجار أولى بالشفعة، ومنها قولهم إن العروس في أيام عرسها، يباح لها المسح على رأسها دون غسله في الاغتسال من الجنابة.<sup>(٥١)</sup> أما في العقيدة فإن الفكرة اللامعة التي يبدو لنا - على الأقل - أن الشيخ التجاني، تجاوز بها عصره، ودلت على ذكاء حاد وفكر عميق، وفهم متحرر من التوهّمات السابقة، فهي ما يتعلق بالقرآن.

فقد رأى التجاني أن القرآن ليس دالاً على كلام الله؛ فقول أهل السنة أن القرآن دال على كلام الله فيه إطلاق وتسامح؛ وقراءتنا للقرآن - كما يضيف التجاني - تدل على مدلولات الكلام الأزلي، لا على عين الكلام الأزلي البارز من الذات الإلهية،<sup>(٥٢)</sup> وتفسير هذه المقولة يكمن في أن القرآن حين نقرأه لا يدل على المعنى القائم بذات الله، فلا وصول للخلق في تلاوة القرآن إلى القرآن إلا بمثابة أنه يقرأ الكلام الذي يدل على مدلولاته، وإذا كان ذلك إشارة واضحة إلى أن فهمنا نحن للقرآن ليس هو القرآن نفسه، فإن إشارات سابقة عن الشيخ التجاني لمعنى قريب من هذا، لكنها لم توضحه بهذه الجرأة، من ذلك ما ينسب إلى عثمان رضي الله عن أن القرآن يحمل وجوهاً، وما نسب إلى علي، رضي الله عنه، من أن القرآن ينطق به الرجال، والمعتزلة قالوا بأن القرآن حادث، أو مخلوق، وهذا قول فيه

تراث التجانية منذ قرنين ونصف القرن تقريباً؛ فلا مفر من إطلاقة سريعة على أصول هذا التراث، وهي المؤلفات التي كتبها الشيخ وأتباعه الناقلون عنه أقواله، وأفعاله، والشارحون لهذه الأقوال، ومناهج التجانية، بوصفها حركة إسلامية فكرية صوفية تستمد أفكارها وتعاليمها مباشرة من التراث الإسلامي السني الفقهي والصوفي.

أ- جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني:

جمعه علي حرازم برادة من أقوال الشيخ. فقد تعرف علي حرازم برادة على الشيخ التجاني وصاحبه قبل أن يصدع بدعوته وطريقته، أي قبل ما يُسمونه بالفتح الأكبر، وذلك حين عاد الشيخ إلى المغرب من أجل زيارة مولاي إدريس، بعد عودته من تونس ومصر والحجاز وبعد أدائه فريضة الحج، ثم لقن الشيخ صاحبه الطريقة الخلوتية، ولازم حرازم شيخه، وكان من أول المؤمنين بدعوته والآخذين أوراده،<sup>(٥٠)</sup> وكان من الذين هربوا معه إلى فاس آخر مرة وهو هارب من بطش الأتراك.

وكتاب الجواهر هو كتاب التجانية الأول بلا منازع، ففيه جمع حرازم كل ما سمعه أو قرأه من أقوال الشيخ، إما أن يكون سمعه من الشيخ شخصياً أو قرأه بخطه، أو من يثق فيه من الأصحاب، حسب قوله: «من كلام سمعته منه أو كتبه بخطه، أو أخبار في سيره تلقيتها من أصحابه وملازميه، ومشاهدتهم من ذلك، وبعضها من خط غيره، ولم أكتب شيئاً من أحد حتى أثبت فيه، وأتحرى الصدق من يحكيه».<sup>(٥١)</sup> والكتاب في جزأين: الجزء الأول وفيه خمسة أبواب وكل باب يقسم إلى فصلين أو ثلاثة. في فصول الجزء الأول تعريف بالشيخ وأحواله وسيرته وأخلاقه، وعلمه ومختلف خصاله، ثم أورد الطريقة، وأجوبة عن مسائل قرآنية وشرح لبعض الأحاديث النبوية، وأخيراً كرامات الشيخ. أما الجزء الثاني فهو غير مبوب وإنما فيه أربعة فصول تشمل الإشارات العلوية ورسائل الشيخ، وأخيراً الفتاوى والمسائل في الفقه. وأسلوب الكتاب، وبخاصة في مقدمات فصوله، يظهر مقدرة لغوية باهرة وعمكناً عجبياً، مع احتفاله بالبهرج اللفظي، شأنه شأن كتب ذلك العصر.

أما الحاج عمر الفوقي، فقد رأينا أنه سعى إلى الجمع بين الدين والدولة وحاول تقليد ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، بل أكثر من ذلك فقد خاض حرباً ضد الوثنيين في مملكة Karta وقام بتعطيم الأصنام، وكان مقر دولته المسجد والزاوية.

لكن أهم الأعمال التي قام بها أصحاب الشيخ وهم أقرب المقربين إليه، هو إرساؤهم لدعائم الحركة في كل مكان، من المشرق في الحجاز ومصر، إلى إفريقيا، فقد شيّدوا الزوايا، وكثر أتباع الطريقة، في أماكن بعيدة، وفي ظرف وجيز، وكان هؤلاء علماء مشهود لهم بالكعب العالي في العلوم الدينية، ففي بلاد شنقيط، كان محمد الحافظ العلوي، وفي تونس العالم الزيتوني الكبير ومفتي الديار التونسية العلامة إبراهيم الرياحي، وله ديوان شعر في الإشادة بالتجاني وطريقته وكبار شيوخها، كما كتب رسائل في الرد على من تهجم على أفكار الشيخ التجاني بعنوان: (مرد الصوارم والأسنة في الرد على من أخرج الشيخ التجاني من دائرة أهل السنن)، وأما في مصر فمن كبار أصحاب الشيخ الذي أقام بمصر، وضريحه في الجيزة يعرف بسيدي المغربي، وهو الشيخ محمد بن عبد الواحد البناني، كما انضم إليه عدد من أصحاب الشيخ مثل المفضل السقاط ومحمد بن المختار الشنقيطي<sup>(٤٩)</sup>

خامساً: الإنتاج الفكري للحركة التجانية

١- النتاج الفكري للطبقة الأولى:

يقصد بالطبقة الأولى طبقة الشيوخ الذين عاصروا التجاني، وصنفوا المصنفات في حياته، أو بعد موته، كما يعد التجاني من هذه الطبقة بوصفه أساس وجودها في الأصل. إن آلاف الكتب التي ألفها التجانيون، من مختلف الأجيال، تجعلنا نقف متأملين في محاولة لتقويم هذا الإنتاج -على الأقل تقوياً انطباعياً أولياً- لأن دراسته دراسة علمية معمقة في الوقت الحالي، أمر غير متاح للأسف الشديد؛ فلم يتوقف التجانيون عن الكتابة للترويج لطريقتهم والتنويه بها وبشيوخها، والدفاع عنها ضد خصومها، منذ عهد الشيخ- أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى هذه الساعة، وما دما غير قادرين على أن ندرس دراسة مستوفية

أما عبد الرحمن طالب، فإنه يدافع عن الكتاب بالتبرؤ منه!! أو على وجه الدقة، من النسخة المطبوعة المتداولة، وبزعمه أن الكتاب المتداول بين الناس ليس هو الكتاب الحقيقي، ويستدل بقول إبراهيم نياس السنيغالي، أن النسخة المطبوعة، المتداولة بين الناس ليست هي النسخة الأصلية، إنما النسخة الأصلية التي كانت بحوزة الشيخ التجاني، أعطاها لوالده البشير حفيد الشيخ التجاني، وهي مخبأة عنده في السنيغال، واعترف السنيغالي أن النسخ المطبوعة المتداولة تحتوي على كثير من الأشياء لا وجود لها في النسخة الأصلية التي بحوزته في السنيغال... ففيها زيادات كثيرة لا وجود لها في نسخة المؤلف.

ويقول طالب معلقاً على كلام السنيغالي: "وبعد هذه الزيادات المدسوسة في كتاب جواهر المعاني، والتقولات التي لم يقلها الشيخ، فإننا - معشر التجانيين - لا نقبل أي نقاش أو اعتراض أو انتقاد منقول من جواهر المعاني المطبوع إذا لم يكن عليه توقيع مؤلفه".<sup>(٥٦)</sup>

والغريب أن الدكتور عبد الرحمن طالب الذي يدافع عن الكتاب بحماسة شديدة واستماتة، فاته أن العبرة بما هو منشور بين الناس من لبنان إلى مصر إلى تونس والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية، والذي طبع أكثر من مرة، وأما النسخة المخبأة في السنيغال، فهي ليست مسؤولية الباحثين والقراء، وليس الدخيل<sup>(٥٧)</sup> هو الذي خبأها ولم يتركها تخرج إلى النور، أو هو الذي طبع ونشر النسخة الملفقة.

ثم إن معظم الشبهات التي يطرحها خصوم التجانيين<sup>(٥٨)</sup> ليست في جواهر المعاني فحسب إنما توجد في كتب أخرى، منها الإفادة الأحمديّة الذي نقله صاحبه الطيب السفياي على الشيخ التجاني مباشرة نشير إلى محاولات محمد الحافظ المصري تسويغ وتأويل بعض المقولات، وقد اضطر، ضمناً، إلى ردها أحياناً وعدها من الشطح الذي يتحدث للشيوخ الكمل.

ب- الجامع لما افترق من درر العلوم:

لا نستطيع أن نسهب في الحديث عن هذا الكتاب لأنه لا يزال مخطوطاً، وقد اطلع عليه بعض الباحثين الذين وصلوا إلى الخزانة العامة بالرباط (المغرب) مثل أحمد الأزمي وعبد

وهذا الكتاب يرجع إليه كل من أراد أن يطلع على التجانية وأفكارها، لذا فكل الانتقادات التي تعرضت للتجانية من جهة الأفكار التي يرى المعارضون عليها أنها مخالفة للشريعة ومنحرفة عن العقيدة إنما هي مقتبسة من هذا الكتاب بوصفه المصدر الأول لتعاليم الطريقة.

والغريب أن أكثر كتبهم تتعرض للتشكيك في نسبة محتواه إلى مؤلفه فضلاً عن نسبته إلى الشيخ. وقد كان هذا التشكيك حتى من شيوخ الطريقة أنفسهم. فأحمد سكيرج نفسه في معرض الدفاع عنه أقرّ بأن الرجل أمّي لا معرفة له بالفنون الآلية من نحو وغيره، وقد استعان بادئ الأمر بالشيخ محمد بن المشري فأملئ عليه نحو خمسة كراريس ثم طلب من إبراهيم الرياحي أن يساعده في تحريره فاعتذر، وأضاف سكيرج أنه وجد من رتبته له ترتيب العقد المنظم المنضد بما طابق كتاب المقصد الأحمدي في التعريف بسيدنا أبي أحمد للعلامة عبد السلام بن الطيب القادري،<sup>(٥٩)</sup> ثم اعترف سكيرج في موضع آخر بأن خطبته كخطبته (يعني الجواهر) وجل ترتيب أبوابه على ترتيبه،<sup>(٦٠)</sup> كما أن الشيخ محمد الحافظ المصري تحفظ من نسبته إلى الشيخ فقال: «إن كان في النسخ المطبوعة من الجواهر ما يخالف الشرع فهو - أي الشيخ - بريء منه لما يقع فيه من التحريف والتصحيح، ويصح أنه دخل فيه ما لا يصح عنه رضي الله عنه».<sup>(٦١)</sup> أما الشيخ عبد الباقي مفتاح، فيقول إن كتاب الجواهر ليس كله من إملاء الشيخ أحمد التجاني أو من تأليف علي حرازم، لأن فقرات كثيرة وطويلة منه، خصوصاً تلك التي فيها أوصاف لمناقب الشيخ وأحواله وأخلاقه وكراماته وبعض الأقوال المنسوبة إليه، منقولة حرفاً بحرف من كتاب كتب قبل جواهر المعاني بنحو قرن عنوانه (المقصد الأحمدي في التعريف بسيدنا أبي عبد الله أحمد) الذي ألفه محمد بن عبد السلام القادري.... حتى القصيدة الرائية المؤلفة من خمسة عشر بيتاً الواردة في الفصل الأول، التي قال حرازم إن بعض أدباء فاس وصف بها الشيخ أحمد التجاني، منقولة من كتاب المقصد، وهي في الحقيقة من نظم الشيخ محمد المهدي ابن محمد بن علي، نظمها في مدح الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله.<sup>(٦٢)</sup>

الشيخ، وهذه الصيغة: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو صاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أساسه ما أشرنا إليه آنفاً من الزعم برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناماً والأخذ عنه مباشرة.

وكثير من الأحاديث مكرر في الكتاب حسب الروايات التي تروى بها، فقد يكون في باب الباء برواية ثم في باب الميم برواية أخرى. أما اللغة التي صيغت بها هذه المقولات فهي لغة هشية أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى، فكثيراً ما يستعمل ألفاظاً من العامية المغربية مثل: الزطاطة، والمقاشحة<sup>(٦٣)</sup> أو تراكيب عامية مثل: (حتى واحد ما يعرف معنى الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم)<sup>(٦٤)</sup> وقوله: الطالب كيف الذيب... أي: مثل الذئب<sup>(٦٥)</sup>.

وأقوال الشيخ عبارات متفرقة لا رابط بينها إلا بدئها بالحرف المعين. وهي مرقمة من ١ إلى غاية ٢٦٧. أما لغة السفياي فهي ليست أشد تماسكاً من اللغة المنسوبة إلى الشيخ، فالعامية تغلبها من حين لآخر، وليس هناك اهتمام كبير بتراكيب الجمل، ولا باختيار الألفاظ، فكثيراً ما نجد استعمالات عامية لألفاظ عربية الأصل.

أما حاشية الكتاب وهي أهم ما في الكتاب، فهي تعليقات الشيخ محمد الحافظ المصري، والمصري يجد حرجاً شديداً في قبول بعض الأقوال، ويجد حرجاً في ردّها؛ وعوض أن يكون شجاعاً ويحكم القاعدة العامة الواردة في المقولة الأولى: إذا سمعتم عني قولاً فنزوه بميزان الشرع... الخ، نراه يجتهد كثيراً في تأويلها وحملها على الرجاء أو حسن الظن، وفي أحسن الأحوال يردها إلى الشطح الذي يقع للشيوخ الكمل. ومع اعترافه في المقدمة التي استهل بها حاشيته بإمكانية الدس والتخليط والكذب على الشيخ وحجته أنهم كذبوا حتى على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه لم يجزّ على رد حديث واحد رداً صريحاً من الأقوال المرتبة ترتيباً أبجدياً، وقد علق على معظمها.

٢- الإنتاج الفكري للطبقة الثانية والثالثة:

هؤلاء العلماء الذين لم يدرّكوا الشيخ ولم ينقلوا عنه أقواله إنما تتلمذوا على أصحابه الأوائل، وهم ليسوا

الباقي مفتاح، ونحن سنعتمد عليهما في الحديث عن محتواه. صاحب هذا الكتاب هو محمد بن المشري، وقد عاصر الشيخ وتوفي في عهده. وأسهم ابن المشري في كتابة النسخة الأولى من كتاب الجواهر مع صديقه حرازم، لذلك فإن الأزمي بعد مقارنته بين ما ورد في كل من (الجامع) و(الجواهر) يرى أن (الجامع) لما افرق من العلوم) عبارة عن تكرار لما ورد في (الجواهر) من حيث المضمون، وليس فيه إلا إضافات قليلة يكون ابن المشري قد أضافها بعد وفاة حرازم.<sup>(٥٩)</sup>

وأما الشيخ عبد الباقي مفتاح فقد أورد بعض مقدمة ابن المشري في كتاب (الجامع) وفيها يرير الكاتب تأليف الكتاب: "إن كلام الشيخ تفرق في نسخ عديدة في بلدان عديدة ووقع في بعضها زيادة على غيرها ونقص وتكرار بحسب فهم النساخ فحشيت أن ينسب ما فيها من التخليط إلى سيدنا رضي الله عنه وحاشاه من ذلك لأنه يغترف من محل الصدق الذي لا يطرقة الربيب".<sup>(٦٠)</sup>

ويستنتج الشيخ مفتاح أن الكذب على الشيخ والدس والتخليط قد شاعت في حياة الشيخ نفسه.<sup>(٦١)</sup> ولعل ذكاء الشيخ وحنكته يبدوان في هذا الأمر بالذات؛ إذ علم أن الكلام الذي يقال يمكن أن يقتطع من سياقه ثم يؤول تأويلاً محرفاً، فكان دائماً يتوقع أن تنسب إليه أقوال مخالفة؛ لذلك تروي عنه معظم الكتب الأمهات المقولة الشهيرة: إذا سمعتم عني قولاً فنزوه بميزان الشرع. ت- الإفادة الأحمدية:

هذا هو الكتاب الثالث الذي كتب في عهد الشيخ، وقد ألفه الطيب السفياي، الذي عاصر الشيخ ومات بعده بعدة سنين، التحق بالشيخ في السنين الأخيرة من عمره، وجمع أقواله ورتبها على حروف المعجم، ثم حاول أن يشرحها واضعاً كل مقولة في سياقها ومناسبتها.

ففي حرف الهمزة المقولة رقم ١٦ يقول: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرفع الإذن عن رجلين من أصحابي زارا عبد السلام بن مشيش"، ثم يعقب السفياي على قول الشيخ بما يلي: سببه أن ترك زيارة الأولياء شرط في طريقه رضي الله عنه، وحين عدم الشرط عدم المشروط.<sup>(٦٢)</sup> والغريب أن معظم الأحاديث التي نسبها السفياي إلى



سيدي أحمد التجاني) و (الرد المحكم في صحة الأسقم)، وكلاهما لا يزال مخطوطاً.

أما في المغرب الأقصى فإن فيها الكثير من علماء التجانية، نذكر من أعيانهم سكيرج وأكنسوس والحجوجي. أما الحاج أحمد العياشي سكيرج وهو أصيل مدينة فاس، وكان جده من الذين أدركو الشيخ، (توفي ١٨٩٣م) لا يمكن تعداد كل مؤلفات الشيخ سكيرج، إنما تقتصر على بعض المؤلفات المنشورة، مثل (كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ سيدي أحمد التجاني من الأصحاب)، وقد ترجم فيه لأكثر من مائة شخصية من كبار أصحاب الشيخ، و(رفع النقاب بعد كشف الحجاب)، في أربعة أجزاء وهو أيضاً كتاب تراجع لمن التقوا بالشيخ وعاصروه وسمعوا منه مباشرة، طبع بتحقيق محمد الراضي كنون الحسني الإدريسي دون تاريخ ولا مكان للطبع.

أما محمد أكنسوس ويسمى أحياناً محمد الكنسوسي فهو صاحب الردود على خصوم الطريقة منها: (رسالة بعنوان الجواب المسكت فيمن تكلم عن الإمام التجاني بلا تثبت)، طبع عدة طبعات في أماكن متعددة أولها طبعة الجزائر ١٩١٣م،<sup>(٦٦)</sup> رد فيها على اعتراضات أحمد البكاي الكنتي من علماء تمبكتو. وما يلفت النظر في هذه الرسالة الاحترام الكبير من أكنسوس لخصمه فلا يسفه رأيه ولا يكفره كما درج على ذلك المتعصبون من علماء الدين حين يواجهون خصومهم، بل يخاطبه خطاباً غاية في اللباقة والاحترام والأدب، مثل سيدي، مقامكم العالي، نفوسكم النورانية المنزهة عن كل مظنة الخ.<sup>(٦٧)</sup>

أما محمد بن محمد الحجوجي فهو أصيل مدينة فاس، وهو مؤلف كتاب (إتحاف أهل المراتب العرفانية بذكر الطريقة التجانية)، وهو من ثمانية أجزاء، وما يزال مخطوطاً. وله كتاب آخر بعنوان: (تيسير الأمانى لقراء شهادة الجاني)، طبع بالمطبعة البلدية بفاس ١٣٣٨هـ.

ومن الجزائر، نذكر العالم محمد بن المشري صاحب (الجامع لما تفرق من درر العلوم) وهو من الكتب الأصول، وهو جزائري من قبيلة أولاد سيدي محمد السايح في الصحراء الجزائرية.

في المغرب فقط إنما متفرقون في أنحاء متباعدة من العالم الإسلامي، كالسينغال وموريتانيا ونيجيريا والجزائر وتونس ومصر، ويمكن تصنيف هذه المؤلفات إلى كتب تعرف بالطريقة، وكتب تنافح عنها ضد خصومها، وكتب تعرف برجالها وأعلامها.

ونظراً لأن هذه الكتب والعناوين كثيرة جداً، والمجال لا يتسع لذكرها، فإننا سنقتصر على أهم المشايخ الذين ألفوها، ونحاول أن نوزع هؤلاء على أقطار إسلامية مختلفة ومتباعدة، كلها عرفت شيوفاً انبروا للتعريف بالتجانية أو للدفاع عنها، محاولين أن نصيب هدفين اثنين: أولهما التعريف بأهم الأعلام وتوزيعهم على الأقطار الإسلامية، وثانيهما التعريف بأهم العناوين التي تداولها المريدون لهذه الحركة، ويعتبرونها تراثهم الثقافي الروحي والفكري الذي يعتزون به اعتزازاً كبيراً.

فمن علماء موريتانيا، أحمد التجاني بن محمد العلوي الشنقيطي: له (الفتوحات الربانية في الطريقة التجانية)، وقد طبع ونشر ضمن الفتح الرباني، بمكتبة القاهرة، لصاحبها علي يوسف سليمان، دون تاريخ، ويتضمن شروط الطريقة. ولهذا الشيخ رسائل أخرى كلها في الدفاع عن الطريقة وتوضيح مسلكتها وأورادها منها (السر الأهر في أوراد القطب الأكبر). وقد نشر أيضاً في الكتاب المذكور آنفاً.

ومن علماء بلاد شنقيط نذكر ابن باب بن أحمد ييب (توفي ١٨٥٠م)، أقام مدة بعين ماضي ومدة أخرى بتماسين على الرغم من أنه من شنقيط (موريتانيا)، من مؤلفاته: القصيدة المعروفة (بمنية المريد) وهي من أربعمائة بيت لخص فيها - نظماً - كل ما يتعلق بالطريقة من تعريف بسيرة الشيخ التجاني وشروط الطريقة والمقدم والأوراد... الخ، ومن منظوماته أيضاً: الياقوته الفريدة وجوهرة الكمال في مدح سيد الرجال.

وعبيدة بن محمد الصغير بن أنبوحة الشنقيطي (توفي ١٨٤٨م) ومن مؤلفاته: روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر الطريقة. ومنهم محمد الأمين الشنقيطي (توفي ١٩١٣م) من مؤلفاته: (درء النبهي عن حرم الشيخ

يحتاج إليه المريد التجاني)، وقد طبع بمكتبة القاهرة لصاحبها علي يوسف سليمان. ومحمد بن المختار الشنقيطي صاحب كتاب (الفيض الداني)، ويبدو أن هذا الأخير أصيل شنقيط لكنه استقر في مصر، وأخيراً محمد الحافظ التجاني (توفي ١٩٧٧م) وله مؤلفات كثيرة عدّد منها صاحب الأضواء اثنين وثلاثين مؤلفاً،<sup>(٧٠)</sup> وهو صاحب التعليق المذكور آنفاً على أقوال الشيخ في الإفادة الأحمدية.

#### الخاتمة

حققت الطريقة التجانية انتشاراً كبيراً في اقطار المغرب العربي والشمال الافريقي، وبقية انحاء القارة الأفريقية، وأسهمت في دورها في نشر الإسلام، وقيادة الحركة الفكرية، والتصدي للبدع والتطرف والممارسات الدينية الخاطئة في ممارسات الطرق الصوفية السائدة انذاك، ناهيك عن تصديها للاستعمار الغربي في بعض أجزاء القارة الأفريقية، وإثارة مشاعر الحماس للجهاد في نفوس الأفارقة. إن الحركة التجانية، بسبب كثرة أتباعها واتساع رقعتها وزخم تراثها المكتوب الذي مازال أكثره مخطوطاً، والجدل بشأنه، تستحق أكثر من دراسة متأنية، وموضوعية، في إطار البحث في التأريخ الثقافي للعالم الإسلامي، لأننا نعتقد أننا لم نفهم بعد ولا نستطيع أن نصل إلى تفسير، يطمئن إليه الباحث، لكثير من الإشكالات العالقة التي تطرحها هذه الحركة الدينية الفكرية.

ومن أشهر رجال الطريقة التجانية العالم الشهير عبد الحليم بن سماية، وعمر بن قدور صاحب جريدة الفاروق سابقاً ومؤلف كتاب (الإبداء والإعادة في مسلك طريق السعادة) وهو في جزأين نشر في الجزائر ١٣٤٤هـ. (وسائق السعادة) وهو رسالة قصيرة من خمس وعشرين صفحة طبع في تغزوت عن جمعية المعارف ٢٠٠٢م.

أما في تونس فأشهر عالم وفقه من كبار علماء التجانية، فهو مفتي الديار التونسية الشيخ إبراهيم الرياحي، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى مؤلفه في الدفاع عن الشيخ في مسألة دلالة القرآن، وله ديوان شعر طبع بدار الغرب الإسلامي سنة ١٩٩٠م بتحقيق محمد اليعلاوي وحمادي الساحلي، كما ذكر له المحققان عدة كتب معظمها في النحو والعروض ومجموعة فتاوى فقهية، ورسالة أخرى في الدفاع عن التجانية بعنوان (دفع اللجاج في نازلة ابن الحاج)، وقد توفي عام ١٨٥٠م.<sup>(٦٨)</sup>

أما في إفريقيا الغربية فعلاوة على الحاج عمر الفوتي الذي كتب كتاباً من أهم كتب التجانية يدل على تمكن من علوم التصوف والاطلاع العميق على الحديث والتفسير، وهو كتاب الرماح المشار إليه آنفاً، وقد طبع على هامش كتاب (جواهر المعاني). وله عدة مؤلفات في التجانية عدها صاحب الأضواء<sup>(٦٩)</sup> ستة عشر مؤلفاً.

وفي السنغال تذكر عائلة نياس؛ ومنهم الشيخ الحاج عبد الله نياس وابنه محمد بن عبد الله نياس وكتبهم الكثيرة التي منها ما هو منشور، وأكثرها لا يزال مخطوطاً وأخيراً الأمين نياس صاحب مجلة الفجر.

وقد أحصى صاحب الأضواء للشيخ محمد بن عبد الله نياس ثمانية عشر مؤلفاً أكثرها قصائد مدح مثل (الخمير الحلال في مدح سيد الرجال)، و(روض المحبين في مدح سيد العارفين)، و(الكبريت الأحمر في مدائح القطب الأكبر). أما في مصر، فقد ذكرنا أن سيدي محمد بن عبد الواحد المغربي هاجر من المغرب واستقر في القاهرة، وكان له أتباع ومريدون للطريقة التجانية في مصر، أما أهم المؤلفات فمن أوائل المؤلفين المصريين محمد بن عبد الله الطصفاوي الشافعي صاحب كتاب (الفتح الرباني فيما

## المراجع

- (١) سعد الله، أبو القاسم. خلاصة تاريخ الجزائر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٧م، ص٦.
- (٢) أورد الدكتور عبد الرحمن طالب قولاً للشيخ العربي بوبكر المضاي نسبة إلى عين ماضي والتوجيهي نسبة إلى قبيلة توجين، مفاده أنه لا يتنسب إلى أخواله بل إلى بني توجين هم أهله الأصليون، ومن ثم فلا يعود نسبه إلى العترة الشريفة كما هو مشهور في مصادر التجانية كجواهر المعاني وغيره.
- (٣) - المدني، أحمد توفيق. مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٠م، ص٨٩.
- (٤) أورد الشيخ عبد الباقي مفتاح نص الرسالة كاملاً وأشار إلى وجود النسخة الأصلية لها بالزاوية التجانية بتاغزوت، انظر:
- مفتاح، عبد الباقي. أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٤.
- (٥) المرجع السابق، ص١٥ وما بعدها.
- (٦) الناصري، أحمد. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٦م، ج٧، ص٦٦.
- (٧) المرجع السابق، ج٨، ص١٠٨.
- (٨) الأزمي، أحمد. الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠م، ج١، ص٩٨.
- (٩) أشار كثير من المؤرخين إلى أنه ساعدهم في تهدئة ثورة درقاوة ضد باي وهران سنة ١٨٠٢م في تلمسان، انظر:
- الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج٨، ص١٠٩.
- (١٠) مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص٢٨.
- (١١) حراز، علي. جواهر المعاني، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٤.
- (١٢) لا وجود لهذا المصطلح في الرسالة القشيرية في علم التصوف للإمام القشيري، على الرغم من أنه السابق في عرض مصطلحات التصوف وشرحها، فقد أورد عشرات المصطلحات في رسالته، أما د. سعد الله فزعم أن هذه المصطلحات مثل الغوث وقطب الأقطاب والأبدال والتجباء... إلخ لها أصول في الفلسفة أو متصلة بالغنوصية والمزدكية، انظر:
- سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص٢٥. وفي التعريفات للشريف الجرجاني: القطبية الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب، وهي باطن نبوة محمد ﷺ ولا يكون إلا لورثته فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة، انظر:
- الجرجاني، الشريف. التعريفات، لبنان، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٥٨. أما المرجع الذي يسهب في تفصيل القطب والقطب الأكبر والقطب الغوث وقطب الزمان. فهو:
- العجم، رفيق. موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٩م، ص٧٦ وما بعدها.
- (١٣) الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، مرجع سابق، ج١، ص٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩.
- (١٤) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج٤، ص٥٨.
- (١٥) مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص٧٧. انظر أيضاً:
- الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، مرجع سابق، ج١، ص٦٦.
- (١٦) منها:
- السايح، محمد العربي، بغية المستفيد في شرح منية المريد، تحقيق: سعيد محمود عقيل، بيروت: دار الجيل، ٢٠٠٥م، ص١٩٠.
- حراز، جواهر المعاني، مرجع سابق، ص٣٢.
- (١٧) السايح، بغية المستفيد في شرح منية المريد، مرجع سابق، ص١٩٤، ١٩٥.
- (١٨) حراز، جواهر المعاني، مرجع سابق، ص٣٤.
- (١٩) مثل تعليق محمد الحافظ المصري، على ما ورد في الإفادة الأحمدية: (قدماي هاتان على رقبة كل ولي من لدن آدم إلى النخ في الصور)، انظر:
- السفيناني، الطيب. الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، تعليق: محمد الحافظ التجاني المصري، مصر: مطبعة الصدق الخيرية بجوار الجامع الأزهر، ١٣٥٠هـ، ص٦٢.
- (٢٠) من الأولياء الذين لمحو أو صرحوا برؤيتهم الرسول ﷺ حسب دفاعات كتب التجانية: الشيخ علي الخواص، وأبو مدين المغربي،

- (٣٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٩.
- (٣٣) أورد الشيخ عبد الباقي مفتاح في (الأضواء) أن القماريين الذين زاروه وأخذوا طريقته بعد أن بنوا الزاوية في تغزوت) أمرهم بإعادة بنائها شرقي قمار وهو الموضوع الموجودة فيه حالياً. انظر:
- مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص١٤٨.
- (٣٤) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج٤، ص٢٤٠، ٢٤١.
- (٣٥) بوعزيز، بحث. ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والعشرين، الجزائر: دار البعث، ط١، ١٩٨٠م، ص١٦٤.
- (٣٦) الفتوي، رماح حزب الرحيم، مرجع سابق، ص٤٥٠.
- (٣٧) - المرجع السابق، ص٣١٥.
- (٣٨) صحيح أنهم يفضلون صلاة الفاتح لما أغلق ويعطونها أهمية خاصة، باعتبار أن النبي ﷺ لقنها الشيخ التجاني مباشرة دون واسطة، غير أنها ليست واجبة خاصة لمن لا يقدر على حفظها، أو قراءتها.
- (٣٩) طالب، عبد الرحمن. الأوراد التجانية اللازمة، تغزوت الوادي: إصدار جمعية المعارف، ٢٠٠٢م، ص٨، ٩، ١٠.
- (٤٠) وضع ذلك الشيخ حمزة بوكوشة في سياق حديثه عن تردد الشيخ إبراهيم العوامر في انتسابه للشيخ المولدي (شيخ القادرية في الجنوب التونسي) وعدم انصياعه للشيخ الهاشمي من جهة، وعن انتسابه للطريقة الرحمانية من جهة أخرى. انظر:
- العوامر، إبراهيم. الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تونس: الدار التونسية، ط١، ١٩٧٧م، المقدمة، ص٢٠.
- (٤١) العوامر، الصروف، في تاريخ الصحراء، ص٦٣، ٦٢، ٣٨.
- (٤٢) السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص٥٦.
- (٤٣) مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص٣٥، ٣٦.
- (٤٤) حرازم، جواهر المعاني، مرجع سابق، ص١٠٠.
- (٤٥) وضعها المنظمون للملتقى الدولي للإخوان التجانيين المنعقد أيام ٤، ٥، ٦ نوفمبر ٢٠٠٨م بالوادي الجزائر.
- (٤٦) السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص٢٨.
- (٤٧) المرجع السابق، ص٢٨. وهذا القول أحد الحكم العطائية، انظر:
- حمدان، عبد الحميد صالح. كتاب الحكم، الحكم العطائية،
- والشيخ أبو الحسن الشاذلي والشيخ إبراهيم المتولي والشيخ المرسى أبو العباس، ومن العلماء الذين قالوا بإمكانية الرؤية الحسية عبد العزيز الدباغ، ابن عطاء الله تاج الدين، والبيهقي، والقرطبي، والقاضي عياض، والشعراني، انظر:
- الفتوي، عمر. رماح حزب الرحيم، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٧٣م، ص٤٥٣ وما بعدها.
- السايح، بغية المستفيد في شرح منية المريد، مرجع سابق، ص١٠٩.
- (٢١) ورد أن أتباعه جاؤوا يخبرونه أن قطاع الطرق ساقوا مجموعة من إبله ستمائة رأس، فلم يبال قائلاً: المهم أنهم لم يؤخروا لنا ظهوراً ولا عصرأ، انظر:
- السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص٣٣.
- (٢٢) يمكن الاطلاع على طائفة من هذه الرسائل في:
- حرازم، جواهر المعاني، مرجع سابق، ص٢٣٤.
- سكيرج، أحمد. كشف الحجاب عن تلاقي مع الشيخ التجاني من الأصحاب، د.م. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م، منها رسائل إلى السلطان نفسه، ص٤٩٩.
- (٢٣) الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، مرجع سابق، ج١، ص١٣٤، ١٣٥.
- (٢٤) السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص٣.
- (٢٥) هذا الإقليم الصحراوي يتنازعه حالياً طرفان: المغرب من جهة، والحركة الانفصالية المدعومة من الجزائر المسماة البوليساريو من جهة أخرى.
- (٢٦) السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص٣٥٤.
- (٢٧) الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٧.
- (٢٨) الفتوي، رماح حزب الرحيم، مرجع سابق، ص٤٣٨.
- (٢٩) سكيرج، أحمد. كشف الحجاب عن تلاقي مع الشيخ التجاني من الأصحاب، مرجع سابق، ص٢٦٢.
- (٣٠) الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٥ وما بعدها.
- (٣١) المرجع السابق، ج٢، ص٤٠٦.

- الحكمة رقم ١٧، القاهرة: مكتبة مدبولي، د.ت، المقدمة (٤٨) ترجم لهؤلاء أحمد سكيرج في:
- سكيرج، كشف الحجاب عن تلاقي مع الشيخ التجاني من الأصحاب، مرجع سابق، ص ٢٧٢، ٢٧٧. وعن شيوخ التجانية في مصر والسودان. انظر:
- مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص ١٨٩، ١٩٠.
- (٤٩) حرازم، جواهر المعاني، مرجع سابق، ص ٣٤.
- (٥٠) المرجع السابق، ص ١١.
- (٥١) سكيرج، أحمد. رفع النقاب بعد كشف الحجاب، دراسة وتحقيق: محمد الرازي كنون، د.ت، ج ٤، ص ١٢٨، ١٢٩.
- (٥٢) سكيرج، أحمد. جنابة المنتسب العاني فيما نسب بالكذب للشيخ التجاني، مصر: دار الطباعة الحديثة، ١٣٨٩هـ، ج ٢، ص ٥٢.
- (٥٣) تعليق محمد الحافظ المصري على الإفادة الأحمدية للطبيب السفياني.
- (٥٤) مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص ١٠٩، ١١٠.
- (٥٥) طالب، عبد الرحمن. سيف التجانية الصقيل في قطع لسان الدخيل، مخطوط موجود بالزاوية التجانية بالوادي، ومنه نسخ كثيرة مصورة ومتداولة، ص ١٠.
- (٥٦) المقصود علي بن محمد دخيل الله، الذي كتب أطروحة جامعة بعنوان التجانية، تحامل -حسب التجانيين- على شيخهم وعلى طريقته. وعبد الرحمن طالب يرد في هذا الكتاب عليه.
- (٥٧) منها على سبيل المثال لا الحصر ما ورد في الإفادة، طريقتنا تنسخ جميع الطرق وتبطلها، ومنها قوله طائفة من أصحابنا لو اجتمع أكابر أقطاب هذه الأمة ما وزنوا شعرة في بحر أحدهم، وقوله إن صلاة الفاتح لما أغلق من كلام الله ومن لم يعتقد أنها من كلام الله لا يصح له الأجر، ولو ذكرت لكم حقيقة واحدة من حقائق الفاتح لما أغلق لأفتوا العلماء بقتلي، إلخ. انظر:
- السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص ٤٠، ٨٠، ٤٧.
- (٥٨) الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٣.
- (٥٩) مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص ١١٤.
- (٦٠) المرجع السابق، ص ١١٤.
- (٦١) السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص ١٩.
- (٦٢) المرجع السابق، ص ٣٢، ٤٢. والمقاشحة: المساومة في الشراء والطرطاة: حماية الطريق.
- (٦٣) السفياني، الإفادة الأحمدية إلى مورد السعادة الأبدية، مرجع سابق، ص ٨٢.
- (٦٤) المرجع السابق، ص ٤٠.
- (٦٥) اكتسوس، محمد. الجواب المسكت، بين أيدينا طبعة أخرى أصدرتها الزاوية التجانية بتماسين طبعت في كوينين ولاية الوادي الجزائر ٢٠٠٧م.
- (٦٦) ينظر، استهلال الرسالة في: محمد اسكوس، الجواب المسكت، ص ١٤، ١٣.
- (٦٧) اليعلاوي، محمد، والساحلي، حمادي. ديوان الشيخ إبراهيم الرياحي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م، ص ٩-١١.
- (٦٨) مفتاح، أضواء على الشيخ التجاني وأتباعه، مرجع سابق، ص ٢٥١.
- (٦٩) المرجع السابق، ص ٢٢٨.
- (٧٠) الصدر، محمد باقر. المعالم الجديدة للأصول، قم: مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ١٤٢١هـ، ص ١٠٢.